مقدمة المترجم

انتشر في الربع الأخير من القرن المنصرم، كثير من الدراسات التي تناولت الإنتاج المعرفي عن "الآخر". فقد أشار كثير من الكتاب، إلى أن الغرب قام بتقديم نفسه على أنه أرقى شعوب الأرض قاطبة في معظم كتاباته عن هذا "الآخر". ويعد كتاب إدوارد سعيد "الاستشراق" الذي نشر في سبعينيات القرن العشرين، وقد أشار إليه ألبرت حوراني في ثنايا هذا الكتاب، من المؤلفات التي ذكر فيها أن لدى الغرب أسلوباً لا يحيد عنه في تشويه صورة العرب و المسلمين، وذلك على نحو منظم مقصور، وشمل ذلك الجوانب الاجتماعية، و الثقافية، والدينية كافة. و لعل السبب يُعزى في ذلك إلى كثرة من تصدى للكتابة عن الشرق من الغربيين، و قلة، بل ندرة من اضطلع بهذه المهمة من أهل الشرق، و على وجه الخصوص أولئك الذين اعتنوا بتقديم ثقافتهم للغرب، أو قاموا بتحليل و وصف دقيقين للعلاقات القائمة بين الشرق والغرب.

لفت ألبرت حوراني في كتابه، كما فعل كتّاب آخرون مثل إدوارد سعيد، وذلك على لسان جاك بيرك إلى أنَّ الدراسات الإسلامية لم تعد كافية وفق الطريقة التي درجت عليها في تقديم الشرق في السابق ؛ إذ يتوجب على العالِم الغربي من الآن فصاعداً أن يعمل بالتعاون مع هؤلاء الذين يعرفون مجتمعاتهم وثقافاتهم من الداخل. ويشير حوراني أيضاً إلى أن المؤتمرات الأولى للمستشرقين لم يكن يحضرها إلا النذر اليسير من علماء الشرق أو لم يكن بها أحد منهم أحياناً، مما يجعل إنتاج المعرفة عن

العالم الشرقي، و العالم العربي والإسلامي خصوصاً، فقيراً إلى المعرفة الإنسانية المفيدة الخالية من التحيّز والتشويه.

أشعر عند قراءة مثل هذا الكتاب، مثلي في ذلك مثل العديد من أبناء الشرق الغيورين على دينهم وثقافتهم، بأن أتصدى لأي معلومات ليست صحيحة يقوم الغربيون بنشرها، بالإضافة إلى المساعدة في إبراز ما من شأنه أن يقدّم الصورة الصحيحة لما عليه الشرق حقاً. و لعل قارئي هذه السطور يشاركوني الرأي، فهم يحملون جزءاً من هذه الرسالة.

أتقدّم بجزيل الشكر للزميل الدكتور أسعد كسّار، عميد كلية الشريعة في جامعة حلب، لقيامه بالمراجعة اللغوية للترجمة التي ساعدتني كثيراً في تصحيح ما فات عليّ من بعض قواعد اللغة العربية، بالإضافة إلى تذكيري بتلك القواعد التي كنت قد نسيتها.

المترجم

obeikandl.com

مقدمة المؤلف

تعكس هذه المقالات الاهتمام المتواصل بالطرق التي تتطور بها التقاليد الفكرية: وتتمثل في تلك العملية التي تتراكم على مر الزمان، وتتناقل عبر الأجيال من جيل إلى آخر. وعلى ذلك فإنها دائمة التغير و التطور، و ترسّخ في الأذهان، و من ثم تكتسب لها مرجعية. وقد خرجت من خلال السنوات التي عملت فيها مدرساً لتاريخ الشرق الأوسط في جامعة أوكسفورد بمثالين صارخين جليّيْن لتلكم العملية. أولهما يتمثل في تشكّل وجهة نظر معينة في أوروبا عن الإسلام وما يرتبط به من ثقافة. وقد تبنى الغرب وجهة النظر هذه، بعد معرفة و اطلاع واسعين بما يؤمن به المسلمون وما أنجزوه في التاريخ، و كذلك مما عرفوه أيضاً من تغير الأفكار في أوروبا عن الدين والتاريخ. أمّا المثال الثاني فهو تطوّر تقليدي بحثي يُعرف بشكل غير دقيق " بالاستشراق" وهو بمثابة تطوير لأساليب لتحديد وتحرير وتفسير النصوص المكتوبة، و نقلها من جيل لآخر عن طريق سلسلة مترابطة من الأساتذة والطلاّب.

ترتبط هاتان العمليتان ببعضهما بعضاً على نحو وثيق، فالباحثون لا يعملون من فراغ مجرد، بل إن أذهانهم تشكلت بثقافة عصرهم وما سبق من العصور، ويضيفون إلى كل ذلك ما استخلصوه من مصادرهم من مبادئ الانتقاء والترتيب التي اكتسبوها و ورثوها من الأفكار والقناعات التي علّمتهم إياها حياتهم.

تحاول المقالة الأولى، وهي المقالة الأطول في هذا الكتاب، أن تَتَتَبّع العلاقة بين هاتين العمليتين، وذلك لتكشف جذور التقليد الأوروبي عند تناولهم للدراسات الإسلامية في أفكار ترتبط بالإله، والإنسان، والتاريخ، والمجتمع و التي تكمن في قلب الفكر الأوروبي. تحاول هذه المقالة، أن تُظهر على وجه الخصوص، كيف أن دراسة الإسلام، عندما ظهرت كفرع منفصل من المعرفة في القرن التاسع عشر، قد وجهتها وروجت لها أفكار معينة كانت سائدة في ذلك الوقت، وهي أفكار عن التاريخ الثقافي، وطبيعة الأديان وتطوّرها، والطرق التي يجب من خلالها فهم الكتب المقدّسة، والعلاقة بين اللّغات. و لقد حاولت قصارى جهدي أن أتتبّع أهمّ سلسلتين للدراسات الإسلامية و كانتا قد بدأتا في باريس، وليدن Leiden في القرن السابع عشر. لقد طوّرت الدراسات الإسلامية بحلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر كينونة منظّمةً خاصة بها لها طرائق تدريس، ومطبوعات واتصالات ـ واكتسبت مرجعية ذاتية راسخة لا تزال موجودة حتى اليوم.

ستجد أنني قد أوليت إجناز كولدزيهير Ignaz Goldziher اهتماماً كبيراً ؛ ذلك لأنه - في نظري - يحتل موقعاً مركزياً رئيساً في الحقبة التاريخية التي أقوم بالكتابة عنها و أتتبعها ؛ و حري بي أن أفعل ذلك إذ إنه قد آل إليه علم كلتا السلسلتين الكبيرتين، ولأنه يمتاز بفكر ثاقب سبكته تلك الأفكار التي سادت في عصره (وأيضاً بالتقليد اليهودي الخاص به). وقد شكّلت اثنتان من مؤلفاته، وعلى وجه الخصوص، الأولى التي تتناول أصول الحديث وتطوره (الحديث الشريف للرسول والأخرى عن تطوّر القانون واللاهوت الإسلامي)، نوعاً من الاعتقاد التقليدي الذي حافظ على زخمه حتى يومنا هذا.

أنا لا أنتمي لأي من تلكما السلسلتين الكبيرتين ؛ فقد ولجت إلى تاريخ الشرق الأوسط من درب آخر كما أنني درست هذا التاريخ في جامعة لم تعرف بعراقتها فيما يخص تاريخ الدراسات الإسلامية عموماً، على الرغم من أن تعليم اللغة

العربية في جامعة أوكسفورد يعود إلى القرن السابع عشر، إلا إنني كنت موفقاً حيث كان لي من الزملاء من كانوا قد تشربوا النهج الرئيس التقليدي في تناول هذا التاريخ، و من هؤلاء إتش. إيه. آر. جيب H.A.R.Gibb وريتشارد والزر Richard Walzer ، وصامويل ستيرن Samuel Stern، وجوزيف شاخت Joseph Schacht ، وروبن زايهنر Robin Zaehner. ولقد عايشت في أوكسفورد الزمن الذي كانت تجري فيه محاولات لإعطاء " الدراسات الشرقية" في بريطانيا قوة دفع جديدة، وذلك بمساعدة مالية من الحكومة. و لقد شغل إتش. إيه. آر. جيب، وهو من أبرز الشخصيات في هذه العملية، منصب أستاذ اللغة العربية عن مقعد الأسقف لود Laud طوال وجوده في جامعة أوكسفورد ولقد كتبت عنه مطوّلاً في موقع آخر،[1] وسأحاول في المقالة الثانية أن أضعه في سياق تطور الدراسات الإسلامية و تقدمها في بريطانيا. (هذه المقالة هي أيضاً بمثابة إجلال لأحد طلابي الأوائل في الدراسات العليا، وهو جمال محمد أحمد، وهو كاتب موهوب، وكان قد عمل فترة وزيراً للشؤون الخارجية في السودان).

استدعي جيب، مثله في ذلك مثل باقي "المستشرقين" من أبناء جيله، لكي يقوم بتدريس عدد كبير من المواد مثل: اللغة، والأدب، والتاريخ. وكان يعتبر نفسه مؤرّخاً في المقام الأول، وكانت إحدى المشكلات التي تؤرق حياته في أوكسفورد، محاولته إقناع المؤرخين بأن يولوا اهتماماً أكبر بتاريخ المناطق النائية عن أوروبا، ووضعها، حسب اعتقاده، في مكانها الصحيح من المنهج الدراسي. وكان من بين الأسباب التي دعته أن يترك جامعة أوكسفورد في النهاية ويلتحق بجامعة هارفرد اعتقاده (وهو اعتقاد ثبتت صحته فيما بعد) بأن أقسام التاريخ في أمريكا سوف تكون أكثر تقبّلاً لفكرة تاريخ العالم، وسوف يكون من الممكن إقناع الطلاب المتميزين الذين تقولبت عقولهم ليصبحوا مؤرخين بأن يكرسوا جهودهم لدراسة العالم الإسلامي.

كان جيب، بوصفه مؤرخاً، مهتماً باستخدام المصادر لكي يسبر غور ما حدث في التاريخ الإسلامي (كما تظهر ذلك دراساته لحياة صلاح الدين)، وأيضاً

لإعطاء تفسير أفضل و أعمق لتطور تلك المجتمعات التي كان فيها الإسلام الدين المهيمن، حيث اعتبرت مقالته "تفسير التاريخ الإسلامي"[٢] في وقتها عملاً واعداً. أما موضوع مقالتي الثالثة فيتناول كتاب "مغامرة الإسلام" لمؤلفه مارشال هودكسون Marshall Hodgson ، وهو مؤرخ أمريكي كان قد تأثر بأفكار جيب، ولكنه لم يكن أحد طلابه. إنّ كلّ كلمة في العنوان الرئيسي لهذا الكتاب و كذلك العناوين الفرعية ذات مغزى و تم إنتقاؤها بعناية و تفكير: "مغامرة"، "إسلام"، "ضمير"، "تاريخ"، و"مجتمع دولي". لقد كتبت هذه المقالة كمراجعة نقدية للكتاب عندما ظهر لأول مرة، وقد رحبت به و أثنيت عليه بحماس كأهم محاولة أصيلة لتزويدنا بالأنماط التي يمكن من خلالها أن نفهم التاريخ الإسلامي ضمن سياق للتأريخ المأهول للأرض، وبمعنى آخر، عالم عصر الزراعة المستقر، والمدن، والثقافة المتقدمة. و ما زلت أعتقد أن هذا الكتاب شائق و مهم، وسوف أضيف إليه الآن كتاباً آخر ذا بنية واسعة، إنه كتاب بعنوان "تاريخ المجتمعات الإسلامية" [٣] للكاتب إيرا لابيدوس Ira Lapidus وهو أحد طلاب جيب في جامعة هارفرد.

يتضمن كتابا هودكسون ولابيدوس فرضاً أساسياً؛ فيذكران أن هناك ما يدعى "التاريخ الإسلامي" و هو جزء من التأريخ العام للأرض المعمورة؛ أي هناك سمات مشتركة محددة في بنية و تطور المجتمعات التي بسط عليها الإسلام سيطرته، و قد أقر جيب بهذا الافتراض على الرغم من أنه لم يكن يخطر ببال أحد بأن "الإسلام" كان يقدم حلولاً و إجابات شافية لكل ما كان يحدث في المجتمعات "الإسلامية"، أو أنّ تاريخ تلك المجتمعات يتألف من حقب متكررة ذات ظواهر متماثلة. إنّ الكتّاب الثلاثة كانوا يعون تماماً بأنّ، تاريخ أي مجتمع "إسلامي" ، في زمان ومكان بعينهما، يختلف عما ساد في المجتمعات الأخرى. و إنّ اهتمامي الخاص بوصفي مؤرخاً ينصب بشكل رئيس على تلك البلدان التي تقع في الجانب الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، والتي يمكن أن تسمى، بشكل غير دقيق، بالشرق الأدنى أو بالشرق الأوسط، وتحديداً

خلال القرنين المنصرمين. و كان الأمر مهماً لي لكي أقرّر فيما إذا كان الإسلام، بوصفه الدين السائد في مصر وسورية وتركيا، سوف يساعدنا في فهم تاريخه في العصور الحديثة. و لقد سنحت لي فرصة كي أناقش هذا السؤال الذي طرحته في مؤتمر عقد في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس عام ١٩٧٩، وكان نتاج ذلك مقالتي الرابعة؛ التي أُقدّم فيها ثلاثة مبادئ بديلة (أو متداخلة) للتفسير، و قد خلصت إلى إستنتاج بأن مفهوم "التاريخ الإسلامي" يساعدنا بالتأكيد بتوضيح أوجه معينة من التاريخ الحديث للشرق الأوسط. و هناك إشارة واضحة في خاتمة المقالة إلى أنني كنت أشك بأن هذا الأمر لم يعد ينطبق على تلك المرحلة التي بدأت تقريباً عند نهاية الحرب العالمية الأولى، و كبقية المراقبين، لم أكن لأتوقع بأن الثمانينات من القرن العشرين، سوف تكون مرحلة لما يسمّى- بشكل غير دقيق- "انبعاث الإسلام".

على أية حال، فإنني أُبيّن في هذه المقالة و كذلك في مقالات أخرى أنني كنت على دراية بالأسس التي يمكن أن ينطلق منها "انبعاث الإسلام": إنه الوعي المتغيّر تجاه "الآخر"، أي تجاه العالم المتحدث باللغة العربية، والمسلم منه بشكل رئيس، والذي كتب عنه المفكرون والمؤرخون الأوروبيون وأنا أحدهم. لقد مضى زمن طويل كان ينظر فيه إلى الشرق على أنه جسم مجهول يجب أن يحلّل بدقة، ولكن الأسفار، وتجربة الحكم الاستعماري، والثورة ضدّه، و إعادة إحياء التقاليد الفكرية والتأليف، جعلت من غير الممكن النظر إلى الشرق على هذا النحو. أما اليوم فيتم إنجاز الأبحاث على نحو جماعي مشاركة بين أولئك الذين تدرّبوا على الطريقة الغربية، وأولئك الذين استفادوا من نفس الطريقة بالإضافة إلى وسائلهم الخاصة التي نقلوها من المعتقدات والفكر الإسلامي. لا يستطيع أحد اليوم أن يكتب ما يفيد عن العالم الإسلامي ما لم يكن لديه إحساس بعلاقة حية مع أولئك الذين يكتب عنهم. تتحدث المقالة الخامسة عن رجلين مختلفين في أشياء كثيرة و لكنهما متشابهان في أشياء أخرى، وقد أثّرت حياة كل واحد منهما في الآخر لفترة قصيرة، كما تتّسم مؤلفاتهما بإحساس حي بالحاجة إلى

الامتداد عبر الهوّة التي خلقتها القوة والعداوة والاختلاف. إنّ فكرة أن يوجد المرء في موضع غير صحيح تطارد تي. إي. لورنس T.E.Lawrence في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة"، وذلك عندما يستأذن للرحيل بعد احتلال دمشق، إذ يقول "بالنسبة لي فقط كانت الحادثة محزنة والعبارة لا معنى لها".[٤] كما رفض لويس ماسينيون Louis Massignon أيضاً "غيظنا الدنيوي في الفهم، وحب السلطة، والتملك".

تملكتني الحيرة لسنوات، وأنا أفكر في حياة كل من لورانس وماسينيون وشخصيتهما. وقد أثر كتاب "أعمدة الحكمة السبعة"، الذي اطلعت عليه لأول مرة عام ١٩٣٥م، في نفسي أثراً كبيراً، و لعله كان واحداً من المحركات شبه الخفية التي شدتني و وجهتني إلى العمل كمؤرخ. وفيما بعد، ولمدة ثلاثة عشر عاماً، كنت انظر من نافذة غرفة نومي إلى مسكنه في حديقة منزل والديه في شارع بولستيد Polstead حيث كان يعيش في شبابه. ولقد التقيت بماسينيون في بعض الأحيان، وبقيت ذكرى حديثه ووجهه لا يفارقان مخيلتي. و عرفت الكثير عنه من أصدقائه وزملائه، وهنا كانت روح المكان مهمة أيضاً؛ إذ قد تتجمع لدي الذكريات عنه و تطرأ على ذاكرتي كلما ذهبت إلى الكنيسة الكاثوليكية اليونانية في منطقة جاردن سيتي في القاهرة. وكان اهتمام صديقته ماري كحيل يعيد تلك الذكريات. و قد أثرت آراؤه عن الإسلام وعلاقته بالمسيحية في غير موضوع من هذه المقالات.

تركت أعمال ماسينيون أثراً عميقاً على المفكرين، وعلى الفرنسيين وكذا على الأجيال التي جاءت من بعده. ويمكن أن نلحظ هذا الأثر في أعمال جاك بيرك Jacques Berque، على الرغم من أن الخط الفكري لدى كل منهما متباين جداً. إنّ مقالتي عن بيرك هي بمثابة إجلال و وفاء لصداقة طويلة، وتعبير عن الامتنان والعرفان لما تعلّمته منه. تحمل كتب بيرك في طياتها مدى تأثير التجربة الطويلة للحكم والاستيطان الفرنسي في شمالي أفريقيا. ولقد علّمنا، من خلال نشأته في الجزائر، وتشربه للّغة العربية بالإضافة إلى لغته الفرنسية الأصلية، ومن خلال إقامته لسنوات

عديدة وزياراته كمسؤول ومفكر، أن نتعرّف على ايقاعين مختلفين للتاريخ في تلك المنطقة، أولهما ذلك الذي حاول الحكام الأجانب فرضه على البلدان العربية المسلمة التي احتلّوها، و ذلك الإيقاع الذي أنتجته الشعوب من تلقاء نفسها. ويدل عنوان أحد كتبه وهو "داخل المغرب" دلالة واضحة على الفكرة المهيمنة على عمله؛ إذ ينظر إلى من هم أبعد من الحكام، وإلى ما وراء المدن الساحلية بشعوبها المختلطة، وإلى البلدات و القرى الواقعة في الوديان و في الهضاب الداخلية المرتفعة. كما تعتبر مؤلفاته عملاً من أعمال الإيمان؛ إذ أنه على الرغم من كل ما يحدث، فإن تحوّلاً إنسانياً قد حدث. فقد ظهرت للوجود تركيبة جديدة تشمل الثقافة العربية واللاتينية، وتجمع بين تقاليد شاطئي (جانبي) البحر المتوسط، وسوف تستمر هذه التركيبة الجديدة في البقاء.

أضفت إلى هذه المقالات ثلاث مقالات أخرى تهتم بمحفّزات وتنشيط الوعي عند "الآخر" وهي محاولات لإيجاد صوت جديد في العالم. تتناول المقالة الأولى اللحظة الأخيرة حيث كان لا يزال من الممكن التحدث عن عالم للثقافة الإسلامية مكتف ذاتياً. وعلى الرغم من أن الظروف الاقتصادية والسياسية للإكتفاء الذاتي لم يكن لها وجود في نهاية القرن الثامن عشر، فإنه كان من الممكن للمسلم المثقف حتى ذلك الوقت أن ينظر إلى العالم الخارجي من حوله واثقاً في قوة وبقاء التقاليد الثقافية التي تعلّمها وورثها من السلسلة المؤلفة من مدرسيه وأسلافه.

لم يعد هذا الأمرصحيحاً بعد نصف قرن من الزمن. فقد قاد توسع التجارة الأوروبية، وقوتها العسكرية، والنفوذ السياسي إلى محاولات، بداية من الحكّام المحليين ومن الحكّام الأجانب فيما بعد، لتقديم طرائق جديدة للإدارة، ومبادئ قانونية جديدة، ومدارس من نوع جديد. لقد طرحت معرفة اللغة الفرنسية وغيرها من اللغات الأوروبية الأخرى، والعالم الذي فتحوه على مصاريعه، أسئلة وأفكاراً جديدة. وقد حدثت هذه المحفزات بادئ ذي بدء في الموانئ والمدن الأخرى حيث كان رجال ونساء من أديان وجنسيات مختلفة يعيشون جنباً إلى جنب، حيث كان من الممكن أن يتم نقل

الأفكار بالإضافة إلى نقل البضائع على نحو سهل ومربح. وكانت بيروت تعد واحدة من المدن الأكثر أهمية في هذا الصدد. وأتناول في المقالتين الأخيرتين اثنين من عائلة البستاني، وهما لبنانيان مسيحّيان تشكل ذهناهما في بيروت، وكانا قد قاما بدور مهم في محاولة لفهم العالم الجديد؛ فهناك بطرس البستاني، الذي عكف على تحرير أول موسوعة عربية، وساعد في تطوير الأسلوب الحديث للنثر العربي التفسيري الواضح؛ وسليمان البستاني، الذي وسّع حدود الإحساس الشعري العربي وذلك بترجمة الإلياذة للشاعر هوميروس. و قد كتبت كلتا المقالتين تخليداً لذكرى صديقين عزيزين. فقد كتبت الأولى لمجلد يحتوي مقالات في ذكرى جاك بيرك، والثانية لتضمن في مجلد في ذكرى مالكوم كير Malcolm kerr ، الذي اغتيل في عام ١٩٨٤م في بيروت، عندما كان رئيساً للجامعة الأمريكية، وقد ظلت صداقتنا لعهد طويل، وكان هو من دعاني إلى مؤتمر في لوس أنجلوس حيث كان من نتاجه رابع هذه المقالات.

obeikandl.com